الرنوك في عصر المماليك

للدكتور محمد مصطفى

للرنوك شأن عظيم عند الغربيين ، لها سجلات رسمية خاصة بها ، يسجلون فيها شكل الرنك (الشعار) وألوانه والرسوم التي فيه ، مع لقب العائلة التي يحق لها حمله ، وأسماء أفرادها ، وكل ما يتعلق بهم من البيانات عن تواريخ ميلادهم ونشأتهم وحالتهم المدنية مع إضافة علامة جديدة لبعض أفراد العائلة الجدد . والرنوك عندهم علماء تخصصوا في البحث فيها ، وفي تتبع رنك كل عائلة واستقصاء أصله وتاريخ نشأة العائلة . وهنالك رنوك أخرى للمدن والبلاد في أوربا لتمييز جماعات كل بلد أو صناعاتها أو مناخها عن غيرها . وقد حاول بعض هؤلاء العلماء إرجاع أصل الرنوك عند الغربيين إلى الشرق ، وقالوا إنهم اقتبسوا فكرتها أيام اتصالهم بالسلاجقة والأيوبيين والمماليك إبان الحروب الصليبية ، بدليل وجود رنوك سلجوقية وأيوبية ومملوكية مشابهة لرنوكهم على بعض الآثار في مصر وسوريا وفلسطين

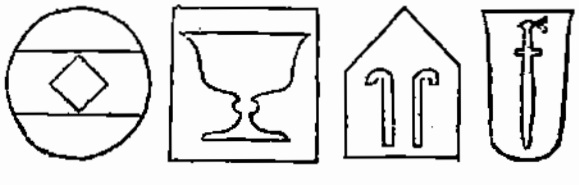

رنوك بسيطة

وبينما نرى أن للرنوك في أوربا صفة عائلية محضة يتوارثها الابن عن أبيه وجده ، نجد أنها كانت تدل في عصر المماليك على الوظيفة التي كان يتقلدها حامل الرنك في البلاط السلطاني . وكان للمماليك في جيشهم نظام عسكري لا يحيدون عنه ، فكانوا يعتمدون فيه على الجند من المماليك فقط ، يجددون دائماً بشراء مماليك صغار ، يتولى جلبهم إلى مصر موظف معين لذلك يلقب بتاجر المماليك . وهؤلاء المماليك الجدد كلهم حديثو السن ، يلحقون بمدرسة المماليك بالقلعة حيث يقيدون كمماليك كتابية ، ويتعلمون القراءة والكتابة ، ويدربون على الأعمال والنظم الحربية . فإذا ما تم تعليمهم وتدريبهم ، أعتقهم السلطان ، ووهبهم ما يبدأون به حياتهم الحرة ، وما يتناسب مع تدريبهم الحربي ، أي ملابساً تميزهم عن إخوانهم الأرقاء وأسلحة وخيلاً . وتطلق كلمة مملوك عليهم بعد عتقهم أيضاً ، فكان مؤرخو العرب يستعملون اسم « مملوك » لمن يؤدي أعمالاً داخلة في النظام العسكري ، وكلمة « عبد » لمن يستخدم في أعمال منزلية مثلاً وهو في الرق .

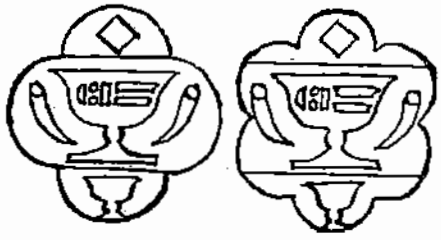

رنوك مركبة

(عن الدكتور ماير ، نفس المرجع ص ٢٧)

ثم يعين السلطان المماليك « الأحرار » الجدد لخدمة في الجيش أو في المقاطعات والبلاد ، بعد أن ينتخب منهم عدداً لحراسته وخدمته الخاصة ، ولذلك يسمون بالخاصكية . وهؤلاء هم نخبة الجند ، يقلدهم السلطان درجات ضباط الجيش ووظائفهم ، فيبدؤها الخاصكي برتبة أمير عشرة ، فأمير طبلخاناه ، فأمير مائة فمقدم ألف ، وهذه أرقاها[1] . وكان لكل من هؤلاء الضباط أو الأمراء شعار خاص به يسمى « رنكا » يرسمه على كل ما يمكن أن يتصوره العقل من الأدوات التي يستعملها في حياته اليومية كالأسلحة والمشكاوات والأقمشة والمخطوطات

(١) انظر : Mohamed Mostafa : Beiträge z. Gesch. Aegypfens z. Zeit d. türk. Eroberung; in : ZDMG, Bd. 89 (1935)

وأدوات الزينة وأوانى الطعام والشراب ، وعلى واجهات المبانى والشبابيك والأبواب والأعمدة وتيجانها وغير ذلك .

والرنوك فى مصر والشام كانت موضوع بحث عند كثيرين من العلماء الأوربيين أذكر منهم Rogers Bey و Karabacek و Van Berchem ويعقوب أرتين باشا . وكان آخر من بحث هذا الموضوع الأستاذ الدكتور L. A. Mayer الذى ألف كتاباً فيه[1] . ولا يزال يتابع البحث ، وينشر ما استجد من الأبحاث فى المجلات العلمية .

شباك فلة عليه رنك به علامة السبع

ومما يؤسف له ألا نجد شيئاً وافياً عن هذا الموضوع فى كتب مؤرخى العرب الذين عاصروا المماليك : كأبى الفداء وكالمقريزى والقلقشندى وأبى المحاسن وابن إياس سوى ما ذكروه من الرنوك عرضاً — وفى حالات قليلة — فى سياق كلامهم عن الحوادث أو وفيات بعض الأمراء . ومن هذه الحالات القليلة ما ذكره أبو الفداء فى تاريخه من علامات وظائف الدوادار والسلاحدار والطشتدار والجمدار والأمير آخور والجاويش . وإننا نعتقد أن مؤرخى العرب اعتادوا رؤية الرنوك ، فلم يجدوا فيها ما يستلفت النظر ولذلك لم يبحثوا فيها ، ويؤيد هذا الرأى الأستاذ جاستون فييت فى نقده[2] لكتاب الدكتور ماير ، ويقول إن الذهبى وصف مرة رنك السلطان كتبغا مع رسم توضيحى له[3] . ولهذا فنحن مضطرون فى دراستنا للرنوك إلى الاعتماد فقط على الكتابات التاريخية التى ترافقها فى بعض الأحيان ، ودراسة تراجم الأمراء المذكورة أسماؤهم فى هذه الكتابات لكى نصل إلى معرفة الوظائف التى كانوا يشغلونها ، ونستخلص من ذلك ما نفسر به رنوكهم

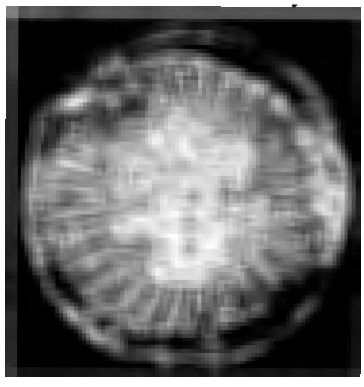

شباك فلة عليه رنك به علامة زهرة الزنبق

وقد دلت هذه الدراسات على أن الوظائف الممثلة فى الرنوك هى وظائف صغيرة فى البلاط السلطانى يشغلها الخاصكية ؛ واستنتج الدكتور ماير أن المماليك كانوا يحتفظون مدى حياتهم برنوك وظائف الخاصكية التى شغلوها فى خدمة السلطان قبل ترقيتهم إلى درجات الأمراء ، بل إن كبار الأمراء كانوا يفخرون بما تولوه فى أول عهدهم بهذه الوظائف الصغيرة .

وأثبتت هذه الدراسات أيضاً أن سبع علامات من التى ترى على الرنوك يمكن الاستدلال بها بوجه قاطع على الوظائف التى تمثلها[1] ، وهذه العلامات هى : الكأس للساقى أو الشراب دار وهو من يتولى سقاية السلطان ، والخانجة أو المائدة المستديرة للجاشنكير الذى يتذوق الطعام للسلطان ، وعصاتا لعبة البولو للجوكندار وهو المشرف على هذه اللعبة . والدواة للدوادار أى كاتب السر — وكان المرحوم عبد الحميد مصطفى باشا أول من أثبت أن الدواة علامة كاتب السر — والبقجة المربعة للجمدار أى حامل الملابس ، والسيف أو الخنجر للسلاحدار وهو الذى يحمل أسلحة السلطان ، والقوس للبندقدار أى رامى النشاب . وجل هذه الوظائف لها سبتة عسكرية يتقلدها — على حد قول مؤرخى العرب — « أرباب السيوف » من المماليك . وهنالك علامات أخرى تراها على الرنوك ، منها : السبع والنسر وزهرة الزنبق والوردة والهلال وغيرها . وهذه العلامات إما شخصية كالسبع[2]

(١) L. A. Mayer : Saracenic Heraldry, Oxford 1933.

(٢) فى مجلة Syria ، ج ١٥ ، سنة ١٩٣٤ ، ص ٩٥ وما بعدها .

(٣) انظر أيضا الدكتور ماير Saracenic Heraldry ، ص ١٤٤ ، حيث أورد ما قاله الذهبى فى كتابه : المنتقى من تاريخ الاسلام

(١) أنظر الدكتور ماير ، نفس المرجع ص ٥

(٢) قال ابن إياس فى بدائع الزهور (طبعة بولاق كاله وعمد مصطفى) ج ٣ ص ٥٩ ، إن الأمير بشباك من مهدى الدوادار الكبير « صنم فى رنكه سبعا » ولكننا لم نعثر للآن على آثار باسم هذا الأمير عليها رنك السبع

الذى يرى على نقود السلطان بيبرس البندقدارى ومبانيه ، أو علامات لم يمكن معرفة ما تدل عليه ، لان تراجم الأمراء المذكورين فى الكتابات المرافقة لها غير مستوفاة ، أو لا تشير إلى

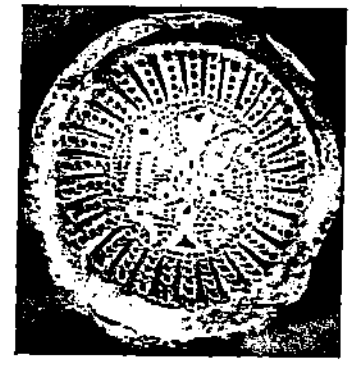

شباك نقل عليه رنك به علامة النسر

الوظائف التى كانوا يشغلونها قبل ترقيتهم إلى درجات الأمراء . وقد استطاع أخيراً الدكتور ماير[1] أن يفسر إحدى هذه العلامات تفسيراً قريباً من المنطق ، وهى على شكل قرن ، وقال إنها تدل على القرن الذى كان يحفظ فيه البارود ، وذلك لأن أول ظهورها كان فى رنوك الثلث الأخير من القرن الخامس عشر الميلادى ، أى عند ما عم استعمال البارود فى الأسلحة .

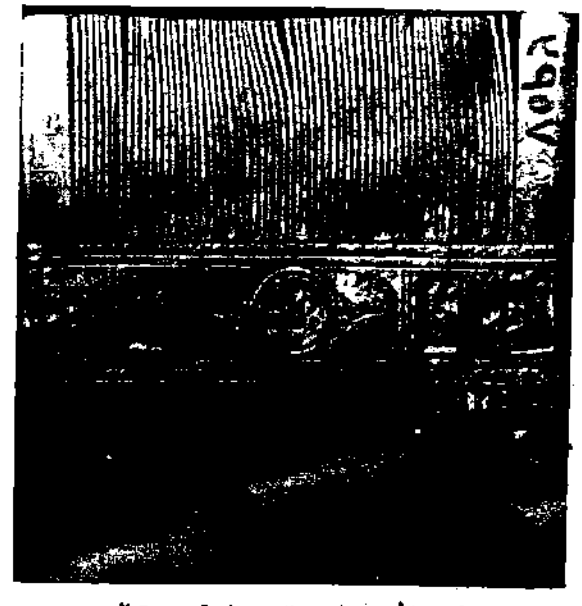

مشط من الخشب عليه رنك به علامة زهرة الزنبق

ولرنك أشكال مختلفة منها المربع والمدبب والذى يتألف محيطه من تقاطع عدة دوائر ، ولكن أكثر هذه الأشكال

(١) انظر : L. A. Mayer : Une énigme du blason Musulman, B. I. E., T. XXI, 1939 p. 141 f.

انتشاراً هو الذى يتكون من دائرة يقسمها خطان متوازيان إلى ثلاثة أقسام يسمى القسم الأوسط منها «الشطب» . وتلون الرنوك بألوان مختلفة حسب ما يختاره صاحبها ؛ وتظهر هذه الألوان فى رونقها فى الرنوك المرسومة على الزجاج والخزف والفسيفساء والرسوم الحائطية

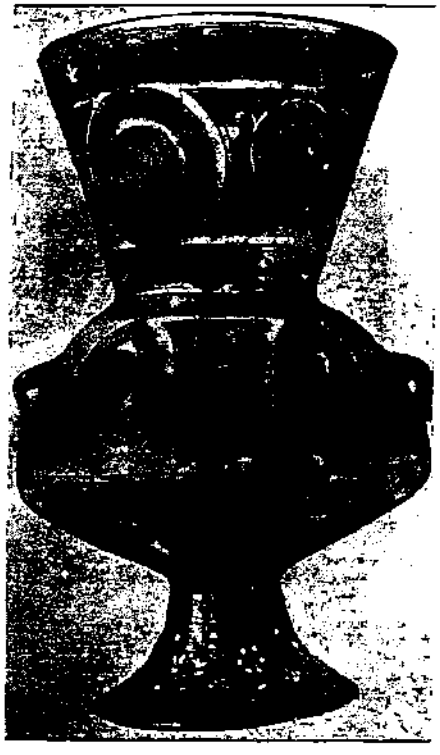

مشكاة من الزجاج عليها زخارف وكتابة باليتا باسم الأمير الملك ورنك به علامة عصاتى البولو

ويقسم الدكتور ماير[1] الرنوك إلى نوعين : رنوك بسيطة ، ورنوك مركبة . فالرنوك البسيطة هى التى تحوى علامة أو أكثر على الشطب ، أو على الرنك مباشرة إذا لم يكن بوسطه شطب ، وهى رنوك شخصية تدل على الوظيفة التى كان يشغلها حاملها قبل ترقيته إلى درجات الأمراء . أما الرنوك المركبة فيرى عليها علامات متعددة على أقسام الرنك الثلاثة ، وهى ليست شخصية ، كما هى الحال فى الرنوك البسيطة ، بل هى رنوك جماعات من المماليك تنتسب كل جماعة منهم إلى أحد السلاطين أو أحد كبار الأمراء كالمماليك المؤيدية والأشرفية والظاهرية مثلاً

(١) انظر : L. M. Mayer : A propos du blason sous les Mamlouks Circassiens, Syria, 1937, p. 390 f.

وكانت الزنوك البسيطة هى الشائعة فى عصر المماليك البحرية . ولم تظهر الزنوك المركبة إلا فى عصر المماليك الشراكسة ، فبدأت بعلامتين فقط على الزنك أيام السلطان برقوق ، وتدرجت إلى أن وصلت إلى سبع علامات على الزنك الواحد فى عهد السلطان قايتباى والسلطان قانصوه الغورى

ويوجد نوع آخر من الزنوك خاص بسلاطين المماليك فقط ويسمى فى الاصطلاح المرقى ـ نقلاً عن الغربيين ـ (خرطوشاً) . وهذا النوع على شكل دائرة مقسمة إلى شطب فى الوسط وقسمين آخرين أحدهما أعلاه والآخر أسفله ولا توجد عليه علامات كما فى الزنوك الأخرى ، بل عليه كتابات باسم السلطان، مثال ذلك كتابة باسم السلطان قايتباى (انظر الشكل) تقرأ : على الشطب : عز لمولانا السلطان الملك الأشرف ، وفى أعلاه : أبو النصر قايتباى ،

لوح من القاشانى عليه « خرطوش » باسم السلطان قايتباى

وفى أسفله : عز نصره . ويرجع أقدم هذه « الخراطيش » إلى أواخر القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر الميلادى[1] فظهرت أولاً على الأوانى كالمشكاوات الزجاج ، وأقدم ما نعرفه منها على المبانى خرطوش باسم السلطان الناصر محمد بن قلاون على حائط فى حوش بردق بجوار مسجد السلطان حسن

(١) انظر الدكتور ماير : Saracenic Haraldry ، ص ٣٤ وما بعدها

وتوجد بدار الآثار العربية مجموعة قيمة من الزنوك على الأوانى والأدوات المختلفة الأشكال والأنواع من الزجاج والخشب والأقمشة والرخام والأحجار والقاشانى والخزف والفخار المطلى

علبة من النحاس باسم الأمير طقيتمر وعليها زنك به علامة السكاس

والنحاس إلى غير ذلك . وكذلك فى المتاحف الأخرى والمجموعات الخاصة ، ولكن عدد الزنوك المصحوبة بكتابات تاريخية قليل بالنسبة إلى العدد الهائل الذى وجد منها فى حفائر الفسطاط .

محمد مصطفى
أمين مساعد دار الآثار العربية

مجالس السلطان الغورى

صفحات من تاريخ مصر فى القرن العاشر الهجرى

كتاب يتضمن كثيراً من الأحاديث والمجادلات التى دارت فى مدارس السلطان الغوري وكانت هذه المجالس تجمع كبراء مصر وعلمائها يتحادثون فى أمور شتى علمية وغير علمية يتفاوتون الحديث بين الجد والفكاهة وقد لخص هذه الأحاديث من نسختين كتبها السلطان وكتب مقدمة وافية فى سيرة الغوري ومكانته فى العلم والأدب :

الدكتور

عبد الوهاب عزام

طبع الكتاب فى مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر فى أكثر من ٣٠٠ صفحة فيها صور وثمنه ١٢ قرش